

مبدأ الملاءمة في منهاج البلاغاء لحازم القرطاجني

Principle of pertinence in Minhaj alboulagha of Hazim al Kartajani

إبراهيم ميهوبي

جامعة عمار تليجي بالأغواط، مخبر اللسانيات التداولية وتحليل الخطاب، كلية الآداب واللغة بالأغواط .

br.mihoubi@lagh-univ.dz

تاريخ الاستلام: 2023/02/21 تاريخ القبول: 2023/05/09 تاريخ النشر: 2023/06/07

ملخص :

انتبه الدارسون المحدثون إلى مفهوم الملاءمة في الدرس اللغوي وأهميته في وحدة الخطابات الحوارية. كما هو الشأن عند غرايس، أو في تحليل المعلومات لفهم المعاني وبلوغ المقاصد كما هو الشأن عند سيربر وولسون. وهو أمر لم يغفل عنه البلاغيون، ومنهم حازم القرطاجني الذي بنى منهاجه، فيما يبدو لنا، على أساس هذا المبدأ، الذي يبدأ فيه بصناعة الخطاب الشعري وما يلائمها، مروراً بالمعاني والأغراض، ويتجاوز ذلك إلى اختيار الأوزان المناسبة، والألفاظ، والحروف. وقد وجهنا كدنا نحو هذا المبدأ متتبعين مظاهره في عمل القرطاجني لنثبت ما بدا لنا بإذن الله. **كلمات دالة :** منهاج البلاغاء ، الملاءمة ، التناسب ، الخطاب ، الأغراض .

Abstract:

Recent researchers paid attention to the concept of pertinence in the linguistic lesson and its importance in the unity of discourse, as in Grice's case, or in the analysis of informations, to understand meanings and achieve purposes, as in Sperber Wilson's case. This matter was not overlooked by arab rhetoricians, including Hazim al cartajanni, whose approach, seems to us, to be based on this principle. which begins with Production of oratory and poetry and what suits each of them.

In this search w have turned almost towards this principle, following its manifestations in the book of Al Cartajanni, to demonstrate that the pertinence is a basic principle in its Minhaj by God's grace.

Key words: Minhaj al boulaghaa, pertinence, compatibility, discourse, intention.

مقدمة :

لم تزل البلاغة العربية حاضرة محاورة، بما تزخر به من درر تزين تراثها، مدها به زخم السنين واجتهاد المجتهدين. فاتخذت طريقها نحو الاكتمال والنضج. وهي في كل ذلك تستهدف نجاعة الخطاب في سياقاته الاستعمالية المختلفة. وتتناول اللغة باعتبارها خطاباً منتجاً للآثار، وقوة للتدخل في الواقع. مسخرة لذلك شبكة من المعارف اللغوية و السوسيوثقافية وغيرها. فضلاً عن قضايا التأثير والتأثر التي تستعمل فيها شتى الوسائل لغوية كانت أو غير لغوية . وقد رسمت منذ البداية معالم طريقها على قضايا التناسب التي تنشده الملاءمة بين البنى وما تؤديه من وظائف، سواء منها ما تعلق بالقصد، أو الحال، أو المشاركين، أو غير ذلك فكان من قواعدها الجامعة المانعة : "لكل مقام مقام" " ولكل كلمة مع صاحبته مقام" " والبلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته " معتبرين أقدار المعاني وأقدار المستمعين وأقدار الحالات. بل إنهم تجاوزوا ذلك في وقت مبكر إلى بعض قضايا الاتساق والانسجام التي تتجاوز العبارة إلى النص والخطاب. وقد كان القرطاجني من بين الذين نذروا أنفسهم لذلك. حيث يعتبر البلاغة العلم الكلي الذي يقتضي ضبطه الإحاطة بعلوم اللسان وعلوم الإنسان المختلفة المتدخلة في تكوين الذات المنتجة للخطاب. ليتولد من هذا المزيج علم تعرف بها طرق التناسب في المسموعات والمفهومات (حازم القرطاجني، 51، 1986). وهو معنى تناول الباحثون بعض قضاياها تحت عنوان الملاءمة. ومانرومه في هذا البحث هو تناول مبدأ الملاءمة أو التناسب في منهاج البلغاء لحازم القرطاجني فماذا يعني ذلك عنده؟ وما هي المساحات التي يتسع لها في منهاجه؟ وما مدى مطابقة هذا المفهوم لمبدأ الملاءمة في البحث التداولي؟

وقد بدا لنا أن نبدأ بالكلام عن هذا المبدأ في البحث التداولي بعد التعريف اللغوي، لنفرغ له بعد ذلك عند حازم القرطاجني.

1- الملاءمة لغة :

جاء في معجم المقاييس: اللام والألف والميم أصلاً : أحدهما الاتفاق والاجتماع... فالأول قولهم: لأمت الجرح ، ولأمت الصدع، إذا سددت. (معجم المقاييس، ج5، 226)

وفي لسان العرب: لأمت بين القوم ملاءمة إذا أصلحت وجمعت، وإذا اتفق الشئان فقد التأم. ومنه قولهم : هذا طعام لا يلائمني... ولأمني الأمر وافقني (ابن منظور، 3976).

وفي المعجم الوسيط : تلاءم الشئان : اجتماعا واتصلا - والكلام اتسق وانتظم (المعجم الوسيط، 2004، 810).

ومنه يدور معنى هذه المادة حول الصلح والاجتماع ورأب الصدع والاتفاق والتناسب. والملاءمة ترجمة لكلمة (pertinence) التي يعبر بها ما هو ملائم أو منطقي ومناسب أو مكيف بشكل تام للشئ المراد. وقد ترجمت في كتاب "التداولية اليوم" بـ " المناسبة (جاك موشلر وآن ربول، 2003، ص 81، 260).

2- الملاءمة في البحث التداولي:

1.2. عند بول غرايس:

يشغل هذا المفهوم حيزا معتبرا في الدرس التداولي، ولا سيما عند كل من غرايس، وسيربر وولسون. فقد خصص له بول غرايس إحدى مسلمات الحوار في مبدأ التعاون. ومفاد هذا المفهوم أن مساهمة المحاور ينبغي أن تلائم موضوع الحوار. (Frank Neveu, 2011, 269).

ففي مسلمة العلاقة (الملاءمة) وهي المسلمة الثالثة من مبدأ التعاون، لا يركز غرايس إلا على قاعدة واحدة أو تعليمة واحدة: هي أن تكون مشاركة المتكلم ملائمة. وهذه التعليمة تخفي أو تطرح مجموعة من التساؤلات، تعلق بأنواع الملاءمة وببؤر الملاءمة الممكنة ومحاورها؟ وبتغير هذه القضايا أثناء مجريات الكلام في حوار معين؟ و بالإجراءات العادية التي تساهم في إضفاء نوع من المصادقية على الحوار في موضوع ما؟ (grice, 1979, p 30).

يطرح غرايس هذه التساؤلات دون الإجابة عنها وذلك لشساعة مساحتها، فيما يبدو، وتفرع الإجابات عنها. ذلك أنها ترتبط بمستويات مختلفة ومقامات متعددة يصعب حصرها. ولكن الجامع بينها، عند غرايس، هو انضواؤها تحت مبدأ التعاون الذي يلقي بظلاله الواسعة على هذا المفهوم. كونه يتعلق بالكم، والكيف، والصدق، والإنجاز، والمنهجية. وهي قضايا يساهم كل منها بقسط في تشكيل ملاءمة مساهمة المتكلم لترقى أن تكون ناجعة توفر جوا من التعاون بين المشاركين تبلغ به المقاصد، ويحدث معه التفاعل، فيكون التأثير والتأثر. ومن ثم الإقناع. والذي يبدو، أن ما يطرحه غرايس لا يمكن فرضه على المتكلمين، لأن ذلك غير ممكن. وإلا اعتبرت نظريته مثالية ومعيارية. ولذلك لا ينبغي النظر إليها من هذه الوجهة لسببين أولهما، ما تم ذكره آنفا. فهي ليست جهازا من المبادئ المعيارية تفرض على المشاركين أن يتصرفوا بهذه

الطريقة أو تلك. وإنما هي نظرية لتأويل الملفوظات تدعو إلى احترام القواعد المذكورة. وثانيهما أن غرايس يصرح بأن احترام القواعد ليس شرطاً ضرورياً لإثارة استلزام ما. ومنه، فهو يقدم للمتكلم استراتيجيتين تتمثل الأولى في احترام القواعد. وتتمثل الثانية في استغلال خرق القواعد لإثارة الاستلزامات المختلفة.

(Jacques Moeschler et Anne Reboul, 1994, p 205).

2.2. عند سبربر وولسون:

ارتبط مفهوم الملاءمة بعملية التلفظ التي تحسد قصد المتكلم. أو بعبارة أخرى، ارتبط بالقول وما يصاحبه وإبرادة القول، كما هو واضح مما سلف ذكره. وإذا كان ذلك كذلك فإن هذا يجرنا إلى الكلام عن الكفاءات اللازمة لتجسيد الملاءمة، بما يستعمل من قرائن وإشارات مناسبة تعبر عن الأغراض المختلفة، من جهة، أو تساهم في تأويل ما يعرض لها من خطابات بالاستفادة من تلك القرائن والإشارات من جهة أخرى. (Annick Duchène, 1997, p 25). ومن ذلك أخذ مفهوم الملاءمة اتجاهه الجديد عند سبربر وولسون الذين يريان أن قاعدة الملاءمة التي يتضمنها مبدأ التعاون، عند غرايس، تكفي لتتوب عن مجموع القواعد الأخرى: قاعدة الكم التي تقتضي أن يتناسب الكم مع المضمون، فلا يزيد ولا ينقص. وقاعدة الكيف التي تفرض أن نتحدث بوضوح ومنهجية. وقاعدة الصدق التي تلزمنا بالصدق فيما نقول. باختصار إنهما يريان أن قاعدة الملاءمة تكفي لإحداث التناسب بين المقاصد وأشكال التبليغ. ولكنهما يضيفان إلى ذلك مفهومًا جديدًا هو المناسب الاستدلالي. وهو المثير الأكثر ملاءمة، الذي يبلغ به المتكلم افتراضاته ليستدل به المتلقي على قصده الإخباري. (مسعود صحراوي، 2008، ص52). ويعتبر سبربر وولسن الإنسان جهازًا فعالًا أو ناجعًا لتحليل المعلومة. كونه يعمل، بطريقة تلقائية، على بلوغ أقصى مدى في تحليل المعلومات. وهما، في هذا الصدد، يؤكدان على فكرة أساسية يدور حولها كتابهما، تتمثل في وجود خاصية فريدة يسمونها الملاءمة- تساعد على تحديد أكثر المعلومات تميزًا في شد انتباه المخاطب، في لحظة معينة، اصطلاح على تسميتها بـ "المناسب الاستدلالي" (Dan Sperber et Deirdre Wilson, La Pertinence, p 76).

فالمناسب الاستدلالي بهذا عبارة عن معلومة متميزة، أو مؤشر أكثر ملاءمة من غيره لإثارة الافتراضات المناسبة، "وإحداث التعالقات بين معارفنا المختلفة قديمها وحديثها وضحها

ومبهمها، الراجع منها والمرجوح، لأن المتلقي يستدل به على ما يراد تبليغه". (إبراهيم ميهوي، 2022، ص 75)

هذا وإن مفهوم الملاءمة عند سيربر وولسون يتجاوز ما ذكرناه إلى تلاؤم ما يرد على المتلقي من معارف، مع مخزونه المعرفي، حيث يعمد المخاطب إلى بعض الحوسبات التأويلية. وهي عبارة عن عمليات منطقية واستثمار للمعارف المختلفة، ينجم عنها استنتاجات مرتبطة بالسياق. ويكون ذلك باستعمال قاعدة الملاءمة. يقول سيربر وولسون "عندما تتعالق معلومات جديدة مع معلومات أقدم منها، تبدأ عملية استدلال، فينجم عنها معلومات جديدة لم يكن بالإمكان الوصول إليها من دون هذا التعالق" (Dan Sperber et Deirdre Wilson, la pertinence, p 79).

والهدف من الحوسبات الذهنية الحاصلة هو حدوث تلاؤم بين المعلومات المخزونة والمعلومات الواردة التي قد ترفض وقد يتم قبولها باعتبارها معلومة جديدة وقد تساهم في تصحيح معلومة أو تعديلها.

3- مبدأ الملاءمة عند حازم القرطاجني:

يكاد مبدأ الملاءمة يشكل الأرضية التي بني عليها كتاب منهاج البلغاء وسراج الدباء فصاحبه لا يفتأ يستعمله بلفظه أو بمشتقاته. كما يستعمل مرادفه "المناسبة" وما يشق منه. بل إننا نجد يوجه المشتغلين بصناعة الشعر نحو هذا المبدأ. فهو ينطلق من صناعتي الخطابة والشعر وما يلائم كلا منهما لينتقل إلى ملاءمة المعاني للنفوس، ثم الملاءمة بين المعاني نفسها، ثم الملاءمة بين الخطاب وما يؤديه من وظيفة. وملاءمة الخطاب للمناسبة، وموافقة حال المتكلم للخطاب. وهكذا حتى يصل إلى الملاءمة بين أجزاء الخطاب الشعري وما يشمله من حسن استهلال، وحسن تخلص. إلى أن يصل إلى حسن اختيار الأوزان المناسبة لكل غرض. ولم يفته أن يتناول تلاؤم الحروف، وتلاؤم الكلمات، وتلاؤم المعاني، وتلاؤم الألفاظ مع المعاني... الخ. وفيما يلي بسط ذلك.

31.. صناعتا الخطابة والشعر وما يلائمهما من تخيل وإقناع :

تشتمل البلاغة على صناعتي الشعر والخطابة ولكل منهما ميزات تتلاءم معها، على الرغم من اشتراكهما في مادة المعاني فهما تفترقان في صورتَي التخييل والإقناع وإن كان لكتليهما أن تقنع فإن الأقاويل المخيلة في الشعر ينبغي أن تكون هي العمدة كما ينبغي أن تكون الأقاويل

المقنعة الواقعة في الشعر تابعة لأقاويل مخيلة مناسبة له ومؤكدة لمعانيها. أما في الخطابة فينبغي أن تكون الأقاويل المقنعة هي العمدة وأن تكون الأقاويل المخيلة فيها تابعة لأقاويل مقنعة مناسبة لها ومؤكدة لمعانيها. فلا يستكثر في كلتا الصناعتين مما ليس أصيلا فيه كالتخييل في الخطابة والإقناع في الشعر. (حازم القرطاجني، 1986، ص 19، ص 362). وفيما يلي بعض ما تختص به كل صناعة على سبيل المثال لا الحصر:

1.1.3. صناعة الشعر:

- تعتمد صناعة الشعر على تخيل الأشياء التي يعبر عنها بالأقاويل وبإقامة صورها في الذهن بحسن المحاكاة . (القرطاجني، 1986، ص 62)
- "ما كان من الأقاويل القياسية مبنيا على تخيل وموجودة فيه المحاكاة، فهو يعد قولا شعريا سواء كانت مقدماته برهانية أو جدلية أو خطابية أو يقينية أو مشتهرة أو مظنونة" (القرطاجني، 1986، ص 67)
- قد يستدل في الشعر بالتمثيل الخطابي (الحكم على جزئي بحكم موجود في جزئي آخر بمثاله) وفي مثل هذا تكون الأقاويل خطابية بقدر ما يكون فيها من إقناع ، شعرية بكونها متلبسة بالمحاكاة والخيال. (القرطاجني، 1986، ص 67). كما في قول المتنبي:
- فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال
- التخييل وهو ما يقوم به الشعر، لا يناقض اليقين (القرطاجني، 1986، ص 70)
- يؤكد القرطاجني على دور الغرابة أو محاكاة الأحوال المستغربة في إنحاض النفوس (محمد العمري، 2012، ص 57-58).

2.1.3. صناعة الخطابة:

- - تعتمد الصناعة الخطابية، في نظر القرطاجني، على تقوية الظن لا على إيقاع اليقين ، إلا أن يعدل الخطيب عن الإقناع إلى التصديق. القرطاجني، 1986، ص 62).
- الأقاويل القياسية الخالية من المحاكاة، المبنية على الإقناع خاصة أصيلة في الخطابة دخيلة في الشعر (القرطاجني، 1986، ص 67)
- أهم مكونين للخطاب الإقناعي هما المناسبة والاعتدال (محمد العمري، 2012، ص 39-40).

ونضيف إلى ما سبق أن المعاني تختلف من حيث هي عامة وخاصة. فمنها ما يشترك في فهمه الخاص والعام، وعليها مدار معظم المعاني الواقعة في الأغراض المألوفة للشعر وهي مستحسنة فيه. ومنها ما يحتاج في فهمه إلى معرفة صناعة معينة، كونها خاصة بأهل تلك الصناعة. وهذه لا يحسن إيرادها في الشعر إذا وجد عنها مندوحة. (حازم القرطاجني، 1986، ص 188) .

2.3. ملاءمة المعاني للنفوس :

1.2.3. محركات المعاني :

يؤكد القرطاجني أن على من أراد التصرف في المعاني أن يعرف أن للشعر أغراضاً أول، هي الباعثة على قول الشعر، وأن بسببها تحدث التأثيرات والانفعالات بحسب ما يناسبها فيكون سبباً في بسطها، أو ينافرها فيكون سبباً في قبضها. والارتياح للأمر السار يحرك إلى المدح. والارتماض للأمر الضار يغضب ويحرك إلى الذم. ومنه تكون الأقوال في الأشياء التي علقها بأغراض النفوس متنوعة إلى فنون كثيرة. فمعاني الشعر، إذن، ترجع إلى وصف أحوال الأمور المحركة إلى القول أو إلى وصف أحوال المتحركين لها أو إلى وصف أحوال المحركات والمحركين معا (حازم القرطاجني، 1986، ص 11-13).

هذا الجمع بين الأغراض الأول وأنوع التأثير بما وما ينجم عن ذلك من أقوال يشي بتوجه القرطاجني نحو جمع قضايا التناسب والملاءمة بدءاً بالجدور الباعثة.

2.2.3. التناسب بين المعاني:

يتصور القرطاجني أن المعاني يمكن أن تلتئم وتقتن في أشكال ويكون ذلك بتوقع حصول المعنى في حيزين ، فيحصل من ذلك: اقتران التماثل، و اقتران المناسبة، و اقتران المطابقة والمقابلة، أو اقتران المخالفة الخ..

فأما اقتران التماثل فيكون عندما يتناظر معنيان في حيزين يكون في كليهما فائدة، وأما اقتران المناسبة فعندما يقتن المعنى بما يناسبه. ويحصل اقتران المطابقة أو المقابلة، عندما يقتن المعنى بمضاده. أما اقتران المخالفة فيكون عندما يقتن المعنى بما يناسب مضاده (حازم القرطاجني، 1986، ص 15) .

3.3. الربط بين الخطاب والوظيفة :

الوظيفية ، كما هو متعارف عليه، طريقة في التفكير أو مذهب في الحياة يشمل مجالات مختلفة : البناء والتعمير ، والاجتماع، والانثروبولوجيا، وعلم النفس ، يربط بين الشكل والوظيفة

أو المكونات والوظيفة أو السلوك والوظيفة... الخ وهو في الدرس اللغوي يدعو إلى أن نأخذ بعين الاعتبار تنوعات الوظائف اللغوية وأشكال تحقيقها في الواقع، إذ بحسب هذه الوظائف المختلفة وأشكال التحقيق تتغير البنية الصوتية والبنية النحوية والتكوين المعجمي (Marie-

Anne Paveau et Georges-Elia Sarfati, 2003 p 116.)

وإذا كان هذا الشأن عند الوظيفيين والتداوليين فإن الأمر لا يختلف عند البلاغيين الذين اتجهوا إلى الاستعمال اللغوي، باعتبار الخطاب يصدر من متكلم معين إلى مخاطب معين. ويكثرون على نجاعة الخطاب في المقامات المختلفة. لأن ما يرومه المتكلم هو البيان والإبلاغ والتأثير. والقرطاجني بوصفه واحدا منهم يتناول الكلام ولا سيما الخطاب الشعري باعتباره فعلا له وظيفة بل وظائف منها :

أ- الوظيفة التأثيرية :

تتعلق الوظيفة التأثيرية باستعمال اللغة بهدف التأثير على الغير. (Marie-Anne

Paveau et Georges-Elia Sarfati, 2003, p 119).

وهو مفهوم نجده عند بوهلر وجاكوبسون وغيرهما من الوظيفيين والتداوليين، الذين يرون أن الخطابات المختلفة أفعال كلامية يراد لها إحداث تغيير في واقع الناس.

والخطاب الشعري كما يراه القرطاجني يستجلب المنافع ويستدفع المضار ببسط النفوس إلى ما يراد وقبضها عما يراد بما يخیل لها فيه من خير أو شر . (حازم القرطاجني، 1986، ص 337). وهذا الذي يذهب إليه يبدأ من تعريفه للشعر بقوله : " الشعر كلام موزون مقفى من شأنه أن يجلب إلى النفس ما قصد تحببه إليها، ويكره إليها ما قصد تكرهه، لتحمل بذلك على طلبه أو الهرب منه" (القرطاجني، 1986، ص 71) ويفهم من هذا أن الشعر، عنده، فعل كلامي له تأثير يمكن به إحداث تغيير في نفوس المستمعين.

ب- الوظيفة التعليمية :

يقسم القرطاجني التخائيل والمحاكيات في الخطاب إلى محاكاة تحسين ومحاكاة تقبيح ومحاكاة مطابقة. وقد قد تكون محاكاة وجود أو محاكاة فرض. وبهذه الطريقة تقرب المفاهيم، ولا سيما المجردة، إلى الناس. وهو نوع من التعليم يتم من خلال التخيل والمحاكاة (مصطفى الغرافي، الأبعاد التداولية لبلاغة حازم من خلال منهج البلاغة، موقع انترنت). هذا فضلا عما يحمله الخطاب الشعري في قوالبه التخيلية من مثل وأخلاق تساهم في تقويم سلوك الناس. وذلك

واضح في قوله يستجلب المنافع ويستدفع المضار. (حازم القرطاجني، 1986، ص 92). ويحسن " أن تكون المحاكاة في الأمور المحسوسة حيث تساعد المكنة من الوجوه المختارة بالأمور المحسوسة. وبها يحسن أن تحاكي الأمور غير المحسوسة حيث يتأتى ذلك ويكون بين المعنيين انتساب". (حازم القرطاجني، 1986، ص 112).

ج - الوظيفة الترفيهية الامتاعية

لا شك أن من وظائف الكلام التسمية عن النفس وتسليتها وإدخال السرور على القلب وإنشاء مساحة يكون فيها نوع من الهروب من دوائر الجد المغلقة فتكون النكتة والطرفة وغيرها ولا شك أن للخطاب الشعري مساحة واسعة يحتلها، بلا منازع في هذا المجال، منها ما يتعلق بمحاكاة المطابقة التي يقصد به ضرب من رياضة الخواطر والملح أو يقصد بها ضرب من التعجيب والاعتبار. (حازم القرطاجني، 1986، ص 112).

مما سبق، يتبين حرص القرطاجني على وضع الكلام الموضوع اللائق به. وذلك يكون بالتوافق بين الألفاظ والمعاني والأغراض من جهة ما يكون بعضها في موضعه من الكلام متعلقا ومقترنا بما يجانس ويناسبه ويلائمه من ذلك. (القرطاجني، 1986، ص 153). ويتضمن هذا العنوان الكبير (العلاقة بين البنية والوظيفة) مجموعة من المباحث نردها فيما يلي:

1.3.3. الربط بين القول والطريقة التي يؤدي بها:

تنقسم طرق الشعر في تصور القرطاجني إلى جد وهزل ولكل منه اعتبارات تجعلها ملائمة للنفوس أو منافرة لها.

1.1.3.3 طريقة الجد

تصدر الأقاويل في طريقة الجد عن مروءة وعقل بنزاع الهمة والهوى إلى ذلك. وما يسوغ فيها لا يسوغ في غيرها. ويشترط فيها ما يلي:

- تجنب الساقط من الألفاظ والمولد
- الاقتصار على العربي الخض وعلى التصاريف الصريحة في الفصاحة.
- أن تطمح النفس فيها إلى ذكر ما لا يشين ذكره ولا يسقط من مروءة المتكلم.
- أن يتحرى فيها الرصانة والمتانة. (حازم القرطاجني، 1986، ص 327-329).

2.1.3.3. طريقة الهزل :

- يمكن أن نفهم ما يسوغ في طريقة الهزل، مما سبق ذكره، مما يعتبر في طريقة الجد بحكم وجودهما على طرفي نقيض. ونجمل ما يراه القرطاجني مناسباً لطريقة الهزل فيما يلي :
- شيوع استعمال العبارات الساقطة والألفاظ الخسيسة. ومثاله كثير في شعر أبي نواس وهو غير منقود عليه. لأنه لائق بموضعه من أشعاره التي قصد بها الهزل.
 - يستساغ في هذه الطريقة استعمال التصارييف التي شاعت في ألسن الناس وتكلم بها المحدثون وإن كان وقوعها في كلام العربي قليلاً.
 - تحري الرشاقة في عباراتها، وتجنب كثير من التكلف الذي يتسامح فيه في طريقة الجد.
- (حازم القرطاجني، 1986، ص 329-332).

2.3.3. أغراض الشعر وما ينبغي اعتماده فيها: (القرطاجني، 1986، ص 351-352).**1.2.3.3. المدح :**

- يؤكد على مجموعة من الاعتبارات التي ترقى بالمديح وتسمو به، نورها فيما يلي:
- توفية الممدوحين ما ينبغي لهم من أوصاف.
 - التوسط في مقادير الأمداح التي لا يحتاج فيها إلى إطالة.
 - تحري الألفاظ والمعاني الجزلة .
 - اعتماد نظم متين مشوب بالعدوبة.

2.2.3.3. النسيب:

تختلف عند القرطاجني الاعتبارات التي ينبغي أن يتسم بها النسيب عن اعتبارات المدح وهي كما يلي:

- عدوبة الألفاظ
- حسن السبك .
- حلاوة المعاني .
- لطف المنزع والسهولة وعدم التوعر .
- التوسط في التغزل قبل المدح .

3.3.3.3. الرثاء:

- اختيار شاجي الأقاويل.

- المعاني المبكية المثيرة للتباريح .
- استعمال الألفاظ السهلة والوزن المملوذ
- لا يصدر الرثاء بنسيب.

4.3.3.3. الفخر :

الفخر يجري مجرى المديح. ولا يكاد يختلف عنه كثيرا إلا بكون الفخر مدحا يعيده المتكلم على نفسه وقبيله. ولكن إذا جاز للمادح أن يصف من بمدحه بالحسن والجمال فإن ذلك لا يسوغ للمفتخر.

4.3. العلاقة بين الخطاب وحال المتكلم :

ما أكثر ما يغني حال المتكلم عن مقاله، ولكن ما أكثر ما تكون الحال حجة داعمة للخطاب، أو وسيلة من وسائل التأثير والإقناع، فليس من يرى كمن يسمع. ومن هنا كان تأكيد القرطاجني على حال المتكلم، إذ يرى أن إظهار القائل المبالغة في التشكي أو التظلم، أو إشراب كلامه نوعا من الكآبة والروعة، وغير ذلك مما يوهم أنه صادق، يكون بمنزلة الحال فيمن ادعى أن عدوا وراءه وهو مع ذلك سليب ممتقع اللون، فإن النفوس تميل إلى تصديقه وتقتنع بدعواه. (القرطاجني ، 1986 ، ص 347).

5.3. ترتيب أجزاء الخطاب وعلاقته بعملية الإقناع :

هذا ولم يغفل القرطاجني عن تلك القضايا التي قد يعدها بعضهم من المحسنات، ومنها ما يتعلق بترتيب القصيدة. ولا سيما ما يدعم عملية الإقناع منها. حيث يؤكد على التدرج في ترتيب الأفكار حتى يسهل استيعابها. وقد رصد القرطاجني لهذا الغرض مجموعة من القضايا تتعلق بإحكام مباني القصائد وتحسين هياكلها، نذكر منها :

1.5.3. ملاءمة الاستهلال للموضوع وعلاقته التأثيرية:

يتنزل الاستهلال من القصيدة منزلة الوجه والغرة فتحسينه يبهج النفس ويزيدها نشاطا لتلقي ما بعده وللاستهلال مظاهر مختلفة، منها ما يتعلق بالألفاظ، من حسن مادة واستواء نسج. ومنها ما يرجع إلى المعاني، من حسن محاكاة ونفاضة مفهوم. ومنها ما يرجع إلى النظم من إحكام بنية وإبداع صيغة، ومنها ما يرجع إلى الأسلوب... إلخ. ورأس الأمر أن يتناسب ذلك مع قصد المتكلم وأن يشرب بما يحدث انفعالا ويثير شيئا من التسويق والتعجيب. (حازم القرطاجني، 1986، ص 309-310).

2.5.3. حسن التلخيص:

يشمل حسن التلخيص مواضع عدة منها ما يكون من غرض إلى غرض، ومنها ما يكون من فصل إلى فصل. وكل ذلك له علاقة بالجوانب الخطائية في الشعر التي يراد بها شد انتباه السامع وقوة التأثير في نفسه لتتهياً للاقتناع .

أفرد القرطاجني لذلك مبحثاً خاصاً جعله بمثابة القوانين التي ينبغي تطبيقها إذا ما أريد للشعر أن يؤدي وظيفته. وهو يرتبها كما يلي :

"القانون الأول : في استجادة مواد الفصول وانتقاء جوهرها

القانون الثاني: في ترتيب الفصول والموالات بين بعضها وبعض

القانون الثالث : في ترتيب ما يقع في الفصول

القانون الرابع : فيما يجب أن يقدم من الفصول وما يجب أن يؤخر فيه وتختتم به". (القرطاجني،

1986، ص 288)

1.2.5.3. ترتيب الكلام وملاءمته لطبائع النفوس

يتبوأ ترتيب الكلام، في لسانيات النص ولسانيات الخطاب، مكانة خاصة تجعله شرطاً من شروط انسجام النص أو الخطاب. ولا يقتصر في ذلك على ترتيب الوقائع زمنياً. فقد يحكم الترتيب من خلال علاقات أخرى، منها تلك التي تربط بين العام والخاص والكل والجزء، والمجموعة والمجموعة الفرعية، والعنصر الكبير والصغير، وعلاقات التضامن، وعلاقات التضاد وغيرها. (محمد خطايي، 1991، ص 38 وما بعدها).

وفي لفته بارعة إلى أثر الترتيب نجد القرطاجني يقول : " ومن القصائد ما يكون اعتماد الشاعر في فصولها على أن يضمها معاني جزئية تكون مفهوماتها شخصية، ومنها ما يقصد في فصولها أن تضمن المعاني الكلية التي مفهوماتها جنسية أو نوعية ، ومنها ما يقصد في فصولها أن تكون المعاني المضمنة إياها مؤتلفة بين الجزئية والكلية. وهذا هو المذهب الذي يجب اعتماده لحسن موقع الكلام به من النفس". (القرطاجني، 1986، ص 295).

يعدد ههنا القرطاجني، انطلاقاً من طريقة تفكيره المنطقية، بعض امكانات الترتيب التي لا يكون لها أثر في انسجام القصائد. ولكنه لا يكتفي بالذكر كما هو الشأن في ما عهدناه في تعداد مظاهر الانسجام في اللسانيات النصية، مثلاً، بل ينحاز إلى ذلك الترتيب الذي يؤلف بين الأجزاء الكلية والجزئية باعتباره أوقع في النفوس وأقوى أثراً. ثم لا يلبث أن يزيد الأمر

تفصيلاً وتوضيحاً، فيقول: "وأحسن ما يكون عليه هيئة الكلام في ذلك أن تصدر الفصول بالمعاني الجزئية وترد بالمعاني الكلية على جهة تمثل بأمر عام على أمر خاص أو استدلال على الشيء بما هو أعم منه أو نحو ذلك. فكثيراً ما يقع بوضع معاني الفصول على هذه الصفة تعجيب للنفس وانقياد إلى مقتضى الكلام (حازم القرطاجني، 1986، 295)

2.2.5.3. الاهتمام برؤوس الفصول :

إذا كان حسن الاستهلال بمنزلة الغرة أو الوجه وإذا كان بذلك يبهج النفس ويستدعي نشاطها، فإن رؤوس الفواصل لا تقل في نظره أهمية عنه وهو في ذلك يقول: "ولما كان اعتماد ذلك في رؤوس الفصول ووجوهها أعلاماً عليها وإعلاماً بمغزى الشاعر فيها. وكان لفواتح الفصول بذلك بهاء وشهرة وازديان حتى كأنها بذلك ذوات غرر رأيت أن أسمى ذلك بالتسويم وهو أن يعلم على الشيء ويجعل له سيمى يتميز بها" فإذا اطرده للشاعر أن تكون فواتح فصوله على هذه الصفة واستوسق له الإبداع في وضع مبادئها على أحسن ما يمكن من ذلك صارت القصيدة كأنها عقد مفصل... وكان اعتماد ذلك فيها أدعى إلى ولوع النفس بها وارتسامها في الخواطر...". (حازم القرطاجني، 1986، 297).

3.2.5.3. حسن الانتقال بين الفصول :

إذا كان مثل المعاني عند الجرجاني مثل الأصباغ التي تعمل بها الصور والنقوش فيعمد فيها إلى التدبر والتخير لمواقعها ومقاديرها وكيفية مزجها لها وترتيبها إياها معبراً بذلك عن حال الشاعر في توخي معاني النحو. (عبد القاهر الجرجاني، 1984، ص 49-50) كل ذلك بقصد التأثير، فإن ذلك هو حال حسن الانتقال بين الفصول في القصيدة. فهو يرى أن جعل فواتح الفصول أعلاماً عليها وإعلاماً بمغزى الشاعر فيها كان لها ذلك بهاء وهو ما يسميه القرطاجني تسويماً. فإذا انتظم ذلك للشاعر في فصول قصيدته صارت القصيدة كأنها عقد مفصل فكان ذلك أدعى لولوع النفس بها وارتسامها في الخواطر لامتياز كل فصل منها بصورة تخصه. (حازم القرطاجني، 1986، ص 297).

مثال : قصيدة المتني : (حازم القرطاجني، 1986، 298-299).

الفصل 1:

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب
أما تغلط الأيام في بأن أرى بغيباً تنائي أو حبياً تقرب

في البيت الأول تعجيب من الهجر الذي لا يعاقبه وصل، ثم أكد التعجيب في البيت الثاني، وذكر أثر الأيام وعملها في بعد الإحباء وقرب الأعداء وهو مناسب لما ذكر من قبل في الهجر، فقال:

أما تَغْلُطُ الأَيَّامُ فِي بَأْنِ أَرَى بَغِيضًا تَنَائِي أَوْ حَبِيْبًا تَقْرِبُ

الفصل 2:

ولله سيري ما أقل تقية عشية شرقي الحدالي وغرب
عشية أحفى الناس بي من جفوته وأهدى الطريقين الذي أتجنب
وهنا يفتح الفصل بالتعجب من وشك بينه وسرعة سيره

الفصل 3:

وكم لظلام الليل عندك من يد تخبر أن المانوية تكذب
وقاك ردى الأعداء تسري إليه وزارك فيه ذو الدلال المحجب
ويأتي الفصل الثالث ليذكر فيه العهود السارة وتعيدها. وذلك يناسب مفتتح الفصل الثاني، في تذكر موطن البين، بعد تذكر موطن الوصل، مع محاذرة الرقبة.

الفصل 4:

ويوم كليل العاشقين كمنته أراقب فيه الشمس أيان تغرب
وعيني إلى أذني أغر كأنه من الليل باق بين عينيه كوكب
في هذا الفصل يذكر حال الرقبة والحذر. وهو يرسل عن سيف الدولة. فشب ذلك بليل العاشقين وحذرهم من الرقباء.

الفصل 5:

لحى الله ذي الدنيا مناخا لراكب فكل بعيد لهم فيها معدب
افتتح هذا الفصل بدم الدنيا لتقلب أحوالها. و في كل ذلك نجد الكلام ينتقل من الشيء إلى ما يناسبه وإلى ما يمت إليه بسبب. فجاء في أحسن ترتيب وأحسن تفصيل.

4.2.5.3. التنويع :

ما أكثر ما تشكو النفوس من كلال السير، وتسأم من تمادي الحال الواحدة، مدفوعة، في ذلك، بما جبلت عليه من ولع بالجديد، وإثارة للانتقال من حال إلى حال، واستئناف الأمر بعد الأمر. كل ذلك يوجب على الشعراء التحيل في دفعه بما يجلب النشاط إلى النفوس ويهزها،

من تنوع يشمل المقاصد والأنحاء المتخذة لتبليغها وهم لذلك يقسمون القصائد إلى فصول ينحى في كل فصل منحى مختلفا يتم به تحقيق الغرض. (حازم القرطاجني، 1986، 295-296).

هذا ولم يكتف القرطاجني في تتبع قضايا الملاءمة بما سبق ذكره، بل ذهب فيه إلى غايات قصوى تتعلق ببناء الأشعار على أوفق الأوزان، انطلاقا من أغراض الشعر المتباينة، سواء منها ما قصد به الجد والرصانة، أو قصد به الهزل والرشاقة، أو البهاء والفخامة، أو الصغار والتحقير. والأوزان كذلك. فهو يرى أن في الهزج سداجة وحدة زائدة. والمجث والمقتضب حلاوتهما قليلة ممزوجة بطيش. والمضارع فيه كل قبيحة. أما أعلاها درجة فالطويل والبسيط ويتلوها الوافر والكامل. فلكل وزن منها طبع ويصير الكلام فيها مائلا إليه. ويتجاوز ذلك إلى مكونات الأوزان حتى إنه ليتناول الأسباب، والأوتاد، والحركات، والفواصل. وهو في ذلك يقول: " منها أن تقع الأسباب الثقيلة الأوتاد المفروقة في نهايات الأجزاء التي هي مظان اعتمادات وتوقرات ومقاطع أنفاس، فيكون وقوع الحركات هنالك غير ملائم للنفوس وثقيل عليها. وكذلك وقوع الفواصل في نهايات الشطور، فإنه مستقل وليس منافرا". هذا ويكفي أن نطالع، ولو عجل فهرس المنهاج لبدو لنا تردد هذا لفظ الملاءمة في العناوين إما بنس اللفظ الذي ذكر في اثني عشر موضعا، ومقابله "المنافرة" الذي ذكر بنفس العدد. ولفظ "مناسبة" الذي ذكر أربع مرات عدا إشارات أخرى تشير إليه كلفظ تأليف، ويرجع إليه وما شابه ذلك.

خاتمة :

مبدأ الملاءمة مبدأ تداولي، يتعلق بمساهمة المحاور ومدى تناسبها مع موضوع الحوار. وهي عند غرايس إحدى مسلمات مبدأ التعاون الذي يلقي بظلاله الواسعة على هذا المفهوم. كونه يشمل كم المعلومات التي تصدر عن المتكلم، وصدقها، وكيفية إيرادها، وترتيب الأفكار، وغيرها. وهي قضايا يساهم كل منها بقسط في تشكيل ملاءمة مساهمة المتكلم، لترقى أن تكون ناجعة توفر جوا من التعاون بين المشاركين تبلغ به المقاصد، ويحدث معه التفاعل، فيكون التأثير والتأثر. ومن ثم الإقناع. ولكن هذا المفهوم جاء أشبه بالقانون الذي يحتاج إلى مذكرة تفصيلية أو تفسيرية. جاء من بعد غرايس من تناول هذا المبدأ باعتباره يمكن أن يغني عن المسلمات الأخرى. وأضاف إليه مفهوما آخر سماه "المناسب الاستدلالي"، للاستدلال على المقاصد المختلفة، متخذنا من الحوسبات الذهنية ميدانا تحدث فيه الملاءمة بين الوارد من الأفكار والمخزون الذهني

في محاولة لتحليل المعاني والمقاصد. ولم يكن حظ الملاءمة عنده أوفر من سبقه. لأن الأمر بقي محصوراً في قضايا الاستدلال، والعلاقة بين المتكلم والمتلقي. وهذا لا يقلل من شأنها، فهو أمر يفرضه إطار البحث وغاياته.

هذا الذي وجدناه مجملاً يغلب فيه النظري على التطبيقي عند بعض التداوليين نجده يتجه إلى أدق التفاصيل في إنتاج الخطاب. فهو يأخذ بعين الاعتبار الاعتبارات التداولية التي تربط بين المتكلم والمتلقي ويتجاوزها إلى تفاصيل تتعلق بما يلائم صناعي الخطابة والشعر، وإن كانت صناعة الشعر قد أخذت الحظ الأوفر. فقد تعرض للمعاني والأغراض والأوزان ومكوناتها ولم يفته أن يتناول حتى القضايا الصوتية. بحيث يمكن القول أن مبدأ الملاءمة، عند القرطاجي، قد اخترق الكتاب من أوله إلى آخره من دون مبالغة. وشكل الأرضية التي بنى عليها منهاج الأدباء فإذا هو يسري في كل شأن من شؤون الخطاب الشعري على النحو التالي:

- صناعنا الخطابة والشعر وما يلائمهما من تخييل وإقناع.

- ملاءمة المعاني للنفوس

- التناسب بين المعاني في حد ذاتها

- الربط بين الخطاب ووظيفته

- النظم وما يكون به ملائماً للنفوس

- الملاءمة بين الخطاب والمقام

- التناسب بين أجزاء الخطاب

- التناسب بين المقاصد وبين الأوزان والمقاصد

ومنه، إذا كانت التداولية والوظيفية تمثلان فتحاً خرج به الدرس اللغوي من مدار التركيب إلى فضاءات الطبقات المقامية المختلفة، وتناول المعاني والمقاصد في ظل العلاقة الوثيقة بينهما، فإن ما جاء به القرطاجي، يكون قد حاز قصب السبق، ليس فقط في ربط المقال بالمقام، وإنما في بحث التناسب الكائن بين أجزاء الخطاب في حد ذاتها، ابتداءً بصناعة الخطاب وانتهاءً بالأوزان والحروف. مما يدعو إلى قراءات أخرى لهذا الكتاب نظراً لم يتضمنه من درر وقضايا تقف كنتفاً إلى كتف مع أحدث النظريات الحديثة.

المراجع :

1. ابن فارس أحمد، معجم المقاييس، ت: عبد السلام هارون، دار الفكر ، 1979.
2. إبراهيم، ميهوبي، المنحى التداولي في فهم النص عند الأصوليين، مطبعة رويغي الأغواط، ط1، 2022.
3. جاك موشر و آن ربول، التداولية اليوم، ت: سيف الدين دغفوس و محمد الشيباني، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2003.
4. الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ت: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1984.
5. القرطاجي حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ت: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3، 1986.
6. مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، دار الشروق، مصر، 2004.
7. محمد خطابي، لسانيات النص، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1991.
8. محمد العمري، البلاغة بين التخيل والتداول، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2012.
9. ابن منظور محمد بن مكرم ، لسان العرب، ت: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة ، طبعة جديدة محققة ومشكولة، دس.
10. مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دار التنوير، الجزائر، 2008، ط1.

المراجع الأجنبية :

11. Annick Duchène, la gestion des inférences chez les cérébrolésés droits, Thèse de doctora, Sous la direction de Jean Luc Nespoulous, Université Claude
12. Dan Sperber et Deirdre Wilson, La Pertinence, les édition de Minuit, Paris
13. Frank Neveu , Dictionnaire des sciences du langage, Armand Colin, Paris, 2^{ème} édition, 2011
14. Jacques Moeschler, dictionnaire de la pragmatique édition du seuil, 1994.
15. Marie-Anne Paveau et Georges-Elia Sarfati, Les grandes théories de la linguistique, Armand colin, France , 2003

المجلات :

16. H. Paul Grice, logique et conversation, In Communication, 1979, v30.

موقع أنترنت :

17. الأبعاد التداولية لبلاغة حازم من خلال منهاج البلغاء وسراج الأدباء (مشروع قراءة)
http://maaber.50megs.com/issue_february15/books_and_readings1.htm